إبراهيم عبد القادر المازنى

المازنى ... تلك البسمة الساخرة التى ارتسمت على فم الأدب العربى زهاء أربعين عاماً ،وذلك الصوت المدوى الذى تجاوبت أصداؤه فى أنحاء العالم العربى ثائرة مستثيرة حقبة من الزمان ، ما كان ينقضى فيها يوم دون أن نطالع للمازنى مقالاً أو يخرج علينا بكتاب ، وما نكاد نمسك مجلة إلا ونجد فيها للمازنى حديثاً أو مقالاً .

وكان المازنى من الرعيل الأول الذين تقدموا الصفوف وحملوا مشاعل التجديد فى مجتمعنا الشرقى وأدبنا العربى ، محتملين كل تضحية ، معرضين لكل نقد وتجريح ، صابرين على كل أذى ومكروه فى سبيل تبليغ رسالتهم وتأدية أمانتهم .

وقد أعانته طبيعته الثائرة وما اكتسبه من جلد وصبر فى مغالبة ظروف الحياة القاسية على الاضطلاع برسالته واحتمال أعبائها ؛ وكأنى بالقدر كان يعده لهذا العمل العظيم الذى قام به ، لأن المازنى قد ولد فى الحادى عشر من يناير سنة ١٨٨٩ فى حى الدرب الأحمر من أحياء القاهرة القديمة ، وكانت أسرته من الأسر المتدينة الحريصة على آداب الدين والتقاليد ؛ فللأخ الأكبر احترامه ومقامه فى البيت لمرتبته فى السن ، وللوالد منزلته التى تقارب التقديس .

وكان والده من أصحاب الطريق أو مشايخ الطرق ، لأن المازنى يحدثنا عن وجود مصلى وميضأة بالمنزل ، وغرف للأتباع والتلاميذ والمريدين على جانبى المدخل .

وقد ألحق المازنى بالكتّاب ، لكنه هرب منه لقسوة الشيخ والعريف ، فأدخل المدرسة الأولية ، ثم مدرسة القربية ، وكانت بحى الدرب الأحمر

قريبة من منزله ، لكن أباه توفى بعد التحاقه بها بأشهر قليلة ، وكان لم يتجاوز السادسة من عمره .

وهنا بدأت ظروف الحياة تقسو على هذه الأسرة الفقيرة حتى اضطرت إلى الاستغناء عن كثير من ضرورات الحياة ، ويسهب المازنى فى الحديث عن هذه الفترة ويبرز أهمية الدور الذى لعبته أمه فى حياته .

فهى التى وقفت فى وجه أخيه وأقاربه عندما أرادوا توظيفه بعد أن نال الشهادة الابتدائية ، فأبت عليهم ذلك وأصرت على إتمام تعليمه ، ودفع نفقات هذا التعليم ولو ببيع أثاث البيت ، وهكذا أكمل المازنى تعليمه الثانوى فى المدرسة الخديوية ، ثم التحق بعدها بمدرسة المعلمين .

ولا شك فى أن إصرارها على تعليم ولدها وقيامها بأداء هذه المهمة السامية عمل جليل فى ذاته ، وكان له أثر بليغ فى حياة هذا الوليد ، لكنى لا أرى لهذه السيدة الطيبة أثراً فى حياة ابنها أبعد من هذا ، ولو أن المازنى يحاول إفهام الناس فى بعض أحاديثه خلاف ذلك لما يشعر به من عظيم فضلها عليه بتعليمه .

ولقد التحق المازنى بعد أن تخرج فى مدرسة المعلمين عام ١٩١٠ بمهنة التدريس فعمل فى المدرسة السعيدية ، ثم ترك التعليم الأميرى للتعليم الحر ، ثم آثر بعد ذلك الصحافة على عالم الوظائف بعد أن كان اسمه قد بدأ يلمع – وهو فى وظيفته – فى مجلة البيان وغيرها .

وأول عمله فى حقل الصحافة كان مع المرحوم أمين بك الرافعى فى مجلة الأخبار ، ثم اشتغل بعد ذلك فى الكشاف والسياسة والسياسة الأسبوعية والبلاغ والاتحاد (١) .

أما فى أيامه الأخيرة ، فكانت مقالاته ، لا تكاد تخلو منها مجلة ،

---

(١) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

فهو يكتب فى جميع صحف دار الهلال « المصور والاثنين والهلال » وأخبار اليوم وآخر ساعة ومسامرات الجيب والنداء ، وقد كان إلى جانب هذا النشاط المنقطع النظير عضواً عاملاً فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، يعد له من البحوث ومواضيع الدرس فى كل دورة الشىء الكثير .

وقد ظل المازنى يكتب وهو على فراش المرض حتى اللحظات الأخيرة من حياته لم تفتر همته ، ولم تَخْبُ ابتسامته الساخرة من الحياة ، فكان يداعب طبيبه قبل وفاته بساعات قليلة قائلاً : « أتخشى أن أموت ، فيقال إنك أمت المازنى ؟ » .

وهكذا لقى الموت مستهزئاً به ساخراً منه فى مساء العاشر من أغسطس سنة ١٩٤٩ .

اعتداده بنفسه

كان المازنى شديد الاعتداد بنفسه إلى حد بعيد ، شاعراً بتفوقه وامتيازه شعوراً قويًّا ، وهو لا يفتأ يذكر الناس بذلك فى كل سانحة تسنح له ؛ فانظر إلى مقدمة كتابه (حصاد الهشيم) تطالع قوله : « لست أدعى لنفسى فيها – المقالات – شيئاً من العمق والابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلاباً فكريًّا فى مصر أو فيما هو دونها ، ولكنى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجًّا ، وثمرة اطلاعى ، وهو واسع ، ومجهود أعصابى ، وهى سقيمة ، بأبخس الأثمان » ثم يقول بعد ذلك : « واعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه – الكتاب – نعم يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثنى على بنيه ، ولكنه لا يسوؤنى أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقنى بأن أضحك من العائبين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كان تحت أنوفهم » .

بل إنه يختم كتابه بتلك الصفعة الأليمة يوجهها إلى جمهور قرائه :

« إنى مستغن عن رضى النقاد المتحذلقين عن كتابى هذا ، وقانع باستحسان أمثالى من الأوساط المتواضعين ، وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأمىّ ، بل أكثر مما يلزم لى » .

وكأنى بالمازنى كان يشعر بتفوقه وعظمته كأى عظيم ، لكنه شعور زاده عمقًا إحساسه بأنه يكتب – وكان ذلك فى أوائل العشرة الثالثة من القرن الحالى – إلى أقلية ضئيلة جدًا من المتعلمين وأقلية تافهة من أنصاف المتعلمين الذين عبر عنهم بالأوساط المتواضعين ، وأنه وجد فى بلد أمى لن يقدر نبوغه وعبقريته ، ولذا فهو يائس من هذا البلد ، ويملأ اليأس فراغ قلبه ويردده بين حين وآخر فى صيحات يرسلها على الناس لتنبههم من غفلتهم ؛ فتراه يقول لقراء كتابه حصاد الهشيم : « هذه مقالات مختلفة فى مواضيع شتى ، كتبت فى أوقات متفاوتة وفى أحوال وصروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح ، وقد جمعت الآن وطبعت وهى تباع المجموعة بعشرة قروش لا أكثر .. وتعال نتحاسب ، إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالا تختلف طولا وقصرًا وعمقًا وضحولة ، وأنت تشترى كل أربع منها بقرش ! وما أحسبك ستزعم أنك تبذل فى تحصيل القرش مثل ما أبذل فى كتابة المقالات الأربع من جسمى ونفسى ومن يومى وأمسى ومن عقلى وحسى » .

تأمل ! إنه يحاسب قارئه عن القرش وعن المنفعة المادية لا المتعة الروحية ولا الفائدة العقلية ، وكأنه يستبعد على هذا القارىء أن يفهم ما يكتب المازنى أو يعيه أو يقدر قيمته .. قد يعترض معترض بأن المازنى اعتاد أن يركب الناس بدعابته ، لكن هذا الاعتراض مردود ، لأن أقل تأمل يدرك منه المرء أن المازنى كان جادًا فى سخره أقسى الجد وأعنفه ، وإنه ليسخر من قراء عصره وثقافتهم ، ويمضى فى هذه السخرية قائلا : « ثم إنك تشترى بهذه القروش العشرة كتابًا ، هبه لا يعمر من رأسك خرابًا ولا يصقل لك نفسًا أو يفتح عينًا أو ينبه مشاعر ، فهو – على القليل – زينة

على مكتبك ، والزينة أقدم فى تاريخنا معاشر الآدميين النفعيين من المنفعة وأعرق ، والمرء أطلب لها فى مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه وأكلف بها مما يظن أو يحب أن يعترف . على أنك قد لا تهضم أكلة مثلا فيضيق صدرك ويسوء خلقك وتشعر بالحاجة إلى التسرية والنفث ، وتلفى أمامك هذا الكتاب ، فالعن صاحبه وناشره ما شئت ! فإنى أعرف كيف أحول لعناتك إلى من هو أحق بها ! ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك ... أو تفككه وتلف فى ورقه المنثور ما يلف ، أو توقد به نارًا على طعام أو شراب أو غير ذلك .. أفقليل كل هذا بعشرة قروش ؟ » .

ويرجح لدى أن هناك أسبابًا أخرى لهذه المبالغة فى الاعتداد بنفسه ، ولعل أهم هذه الأسباب شعوره بالنقص ... نقص مرجعه البيئة أولاً ، وقد كان المازنى من بيئة محافظة متدينة لا تريم عن التقاليد الموروثة والعادات القديمة والآداب الدينية ، بينما اندفع هو فى ثورة على هذه المواضعات وأخذ نفسه بتعاليم الغرب ، وكأنه كان يخشى النكسة فكان يبالغ بالتظاهر بغر بيته .

والسبب الثانى لهذا الشعور هو قصر قامته قصراً جعله يريد أن يوهم الناس جميعًا أنه عملاق .. عملاق فى الأدب أو عملاق فى الأثر ، وقد كان شعوره بقصره فادحًا ، وليس أدل على عمق هذا الشعور من هذه الحادثة التى يرويها عن نفسه ، وهى أنه كان أستاذًا فى إحدى المدارس الثانوية – وكان التلاميذ حينئذ فى مدارسنا الثانوية رجالاً ذوى شوارب وأجسام ضخمة – وقد لمحه الناظر ذات مرة واقفا فى فناء المدرسة فى وقت الدرس فحسبه تلميذًا فاقترب منه وصفعه على قفاه صفعة أطارت طربوشه ... والمازنى يروى هذه القصة وما زال يذكرها برغم اتهامه نفسه بضعف الذاكرة .

ثم هذه الضائقة المالية التى أصابت أسرته بعد فقد أبيه وما عانته هذه الأسرة من شظف العيش ومن ضروب الحرمان ، وما خبره فى هذه الفترة من جحود الناس وانعدام روح الخير بينهم حتى قال : « وأحسبنى من أسوأ الناس ظنًا بالناس ؛ ومن طول ما وطنت النفس على معاناة الشر والأذى والمتعبات والمنغصات صرت لا يروعنى حادث مهما جل ، والذين يعرفوننى يظنون هذا جلدا ، ولكنه ليس من الجلد فى شىء ، وإنما هو ثمرة ما تقرر فى نفسى من سوء الظن بالدنيا والناس » .

وطبيعى أن المازنى إزاء هذه الظروف كان مضطرًا للاعتماد على نفسه وعلى مقدرته على مغالبة الحياة ومجالدة ظروفها ، مستقلا برأيه مستغلا مواهبه الخاصة وحيويته ، غير منتظر معونة من أحد من الناس .

وقد نجح المازنى فى حياته المستقلة هذه ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يعتز بشخصيته ويترفع عن الناس ، لا سيما من كان يرجو العون عندهم إبان ضعفه فوجد عندهم الإعراض ، فلم يتوان هو عندما اطمأن إلى مكانه فى معترك الحياة عن الإعراض عنهم واحتقار شأنهم حتى قال يومًا : « فى الهند طائفة يحقرها بقية الهندوكيين ويعدونها من المنبوذين .. وأنا لا أحتقر أحدًا ، ولكن ذوى الألقاب عندى منبوذون – أعنى أنى أنفر منهم وأكره مجالسهم وأتقى مخالطتهم وأوثر عليهم البسطاء الفقراء بل حتى الجهلاء والأميين ، وأرى لى عطفًا عليهم وحبًّا لهم وفهمًا وإدراكا لأساليب تفكيرهم وسرورًا بحديثهم وإن كان تخليطًا (١) » ، وقال مرة أخرى معبرًا عن اعتزازه بنفسه وطريقته فى الحياة فى معرض حديث عن المجتمعات الراقية وحفلاتها التى كان قلما يجيب الدعوات إليها : « إنها مجتمعات حافلة بمظاهر التصنع والرياء والنفاق والتكلف الثقيل ، كلا يا سيدى (يفتح الله) إن بجلبابى الفضفاض وجلستى الهادئة البسيطة أنعم بما لا ينعم به إنسان » .

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ١٩٤٩ .

وكان المازنى مؤمناً برسالته فى الحياة معتقداً أنها أسمى من كل رسالة أخرى فى الوجود ، محبًّا لها ، ولا سيما لما منحته من حرية فى التفكير والحياة ، ولذلك كان ينفر من الأحزاب السياسية ، ولا يطيق فكرة الانضمام إليها ، وقد قال عندما طلب منه ذلك : « لقد تركت وظائف الحكومة لأنى لا أطيق القيود ؛ فكيف أقيد نفسى بأغلال الحزبية الثقيلة ؟ إنى اليوم حر أكتب ما أشاء ، وأقول للمحسن أحسنت ، وللمسىء أسأت ... فدعنى بالله من هذه القيود وتلك المظاهر »[1] .

والكتابة عنده أسمى وأرفع من أى وسيلة أخرى من وسائل خدمة المجتمع ،ولذلك كان يأبى أن يرشح نفسه للنيابة أو أن يسعى إليها ، وقد قال يوماً : « لقد خلقت كاتبًا وسأظل كاتبًا أخدم بلادى عن طريق الصحافة[2] » عندما ألَحَّ عليه سكان حيه فى ترشيح نفسه عنهم .

وأظن أن المازنى قد بلغ بذلك أقصى حدود الاعتداد بالنفس والإخلاص لرسالته فى الحياة .

مدرسة المازنى

هل كان للمازنى مدرسة ؟ :

إذا كان المقصود بالمدرسة مذهبًا جديداً فى الأدب أو الفلسفة ؛ فلا أظن أن المازنى قد جاءنا بجديد فى هذا الباب ، وإنما كان المازنى قائد جيل من الأدباء .

وقد عاصر المازنى فترة انتقال خطيرة فى تاريخ الآداب العربية ، وكان على المازنى وزملائه كالعقاد وطه حسين أن يقودوا ثورة على القديم وأن يحطموا الأصنام المعبودة والمقاييس الجامدة التى أحيط بها الأدب العربى ، وأن يزلزلوا عقائد معاصريهم فى قدسية كل قديم ، ولذا كان العمل

(١ و ٢) من مقال لأحمد المازنى بالهلال .

الأساسى هدمًا وتمهيداً لما بعده ، وكان على المازنى أن يكون معول هدم أولاً ليستطيع أن يبنى ، وقد كان يدرك دوره ويشعر به ويحسه ؛ فهو يقول فى حصاد الهشيم (ص ٢٦٤) فى معرض حديثه عن الآنسة مى : « وأنا أيضًا أكتب وأقرض الشعر ، فما مصير كل هذا الذى سودت به الورق وشغلت المطابع وصدعت القراء ؟ إنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء ؛ فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم ؟ ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهدين الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟ » .

وبرغم إشفاقه من الفناء وعدم خلود الذكر إلا أنه يمضى قدمًا فى رسالته ويدعو إلى التمرد على الأوضاع القديمة ويلتمس لنفسه العذر من هذا التمرد فى حديثه عن ابن الرومى فيقول : « وعذره من هذا التمرد عذر كل فرد حساس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال ، وليس أقسى من أثر ذلك فى النفس ولا أوجع ، ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة ؛ فإن الحياة كانت قديمًا وما زالت إلى الساعة ، وستظل إلى آخر الزمن إن كان له آخر ، صراعًا دائمًا وجهادًا متواصلاً ؛ وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعى التذمر ، وما كان المرء ليهتدى إلى جانب هذا – أو قبله – بحدود قدرته وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة أو يحدد هذا المجال ، وقد يعين الجهل أو البلادة على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية ، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه إلا عدلاً مقنعا وضرورة لا مهرب منها ولا خير فى التبرم بها » .

فهو هنا يعرض بهؤلاء المستسلمين للواقع القانعين بالدون من الحياة ، لكنه هو أحيانًا يستشعر التعب من طول عنائه فى إفهام الناس أغراضه

وأهدافه من كتاباته التى لم يرم بها إلا إلى الإصلاح ، فتراه يقول : « رأيت عجبًا أيام كنت أنشر هذا النقد ، من ذلك أنى كنت إذا قلت إن حافظًا أخطأ فى هذا المعنى أو ذاك ، قال بعضهم : (لم يخطىء حافظ وإنما تابع العرب وقد ورد فى شعرهم [1] أشباه ذلك) كأن كل ما قال العرب لا ينبغى أن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرءاً من كل عيب ... إلى غير ذلك مما يغرى المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول ! » .

« وإذا فرضنا أن العرب أصابوا فى كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعى أن نقصد قصدهم ويحتذى مثالهم فى كل شىء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق .

ولعل أهم ما كان يعانيه تشبث القوم باللفظ والتركيب واستخفافهم بالمعنى وكأنه ليس هناك للأدب رسالة فى الحياة سوى تجويد صنعة الألفاظ وإتقان أبواب النحو والصرف لا الترجمة عن معانى الحياة وخلجات النفس .

ولتقرأوا معى هذه الصيحة الصادرة من الأعماق وفيها يبرز المازنى فى أسلوب شعرى جميل – يفصح عن آلام نفسه – أهدافه الأدبية محاولاً شرحها للناس : « وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ويعصر قلبه وينسج آماله ومخاوفه التى هى آمال الإنسانية ومخاوفها ، ويستورى من رفات آلامه شهابًا يضىء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أخًا حنانًا يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التى ربما التبست على القارىء لفرط جدتها أو غابت فى مطاوى اللفظ واستسرت فى مثانى الكلام » .

« أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر :

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٣١ .

ياضيعة العمر ! أقص على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه ! كأنى إلى اللفظ قصدت ... وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم لو تأملوها نفوسهم بادية فى صقالها ، فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإطارها ،وهل هو مفضض أم مذهب ، وهل هو مستملح فى الذوق أم مستهجن ؟ وأفضى إليهم بما يعيى أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون : لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك ! ما لهم لا يعيبون البحر بإعواج شطئانه وكثرة صخوره ؟ ياضيعة (١) العمر ! » .

من هذا ندرك أن المازنى كان يعانى رهقًا وشدة فى حمل الناس على فهم مذهبه ، وكان من أهم أسلحته – كما أسلفنا فى نضاله الهدم وتحطيم الأصنام وزحزحتها عن قواعدها ، فبدأ بنقد شوقى وحافظ – وكذا فعل العقاد وطه حسين – وكان ذلك فى أوائل عهده بالصحافة سنة ١٩١٣ ، وعرض شعرهما على الناس وتلمس مواضع الضعف فيه حتى يؤمن الناس معه بأن قدسية القديم وهم باطل يجب التحرر منه وبأن الشعر يكون أفضل وأوفى بالغاية إذا عبر عن بيئته واستعمل أدوات عصره .

شاعريته

والسؤال الثانى الذى يتبادر إلى ذهن القارىء : هل كان المازنى شاعرًا ! وهو سؤال يجرنا الجواب عليه إلى الحديث عن الشعر أو إلى إيضاح رأينا فى الشعر ، لكنى سأوثر ترك المجال للمازنى ، ثم يكون الحكم للمازنى أو عليه من نفس أقواله .

يقول المازنى : « الشعر فن ذهنى غرضه العاطفة وأداته الخيال أو الخواطر المتصلة التى توجهها العاطفة وجهتها » أى أن المازنى يقصر

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٣٣ .

وظيفة الشعر على التعبير عن العواطف والترجمة عن المشاعر وخلجات النفس ، أو هو يرمى إلى القول بأن هذه هى وظيفة الشعر الرئيسية .

ومع ذلك فقد رأيت المازنى فى معظم ما وقع لى من شوارد نظمه يريد أن يستخدم الشعر لإبداء آراء فلسفية أو مشاهدات علمية ؛ فهو فى إحدى قصائده يريد أن يحدثنا عن الخلود فيذهب إلى الجحيم ليتخذ منها مسرحاً لقصيدته :

ذهبت أجوس خلال الجحيم وأنفض أجـــوازها والحجر
فما راعنى غير مرأى اللعين إبليس يرمقـــــنى كالنمر

ولعله كان أكثر توفيقًا عندما حاول ترجمة بعض رباعيات الخيام عن الانجليزية :

إيه دعنى أغتنـــم هذا المدى قبل أن يطوى ترابى فى الثرى
حيث لاخمـــر ولا شدو ولا قينة كلا ، وما من منتـــهى

وقد ترجم المازنى الكثير غير ذلك من الشعر الأوربى العالمى ، ترجمة بلغت منتهى الدقة والروعة ، شفت عن عبقرية نادرة فى الترجمة ، لأنه كان يترجم إلى شعر عربى مع المحافظة كل المحافظة على أداء المعنى الأصلى أداء أمينًا .

لكن المازنى الشاعر إذا أراد أن يعبر عن خواطر نفسه وخلجات قلبه يأتينا بشعر ضعيف متهافت لم يتحرر من نزعة التفلسف كقوله :

مرت عشاء - بى - فـــتانة يا حسنها لو أن حسنًا يدوم
والليل ساج شـــاحب بدره كأنما أضناه طول الوجـــوم
أمثل هذا الحـــسن لما يزل فى عالم الشر القديم العميم؟

ووفق نظرية المازنى فى الشعر أخلص إلى أن المازنى الناثر أشعر من

المازنى الناظم ، أى أن المازنى أقدر على تصوير خواطره وهواجسه نثراً منه نظماً . ولتتأمل معى هذه القطعة الرائعة من نثره يصف فيها ليل الصحراء فيسبغ عليه من حيويته حياة عارمة مليئة بالقوة والحركة : « وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناسخة للظلمة والمضيعة لوقعها فى النفس ؟؟ ها هنا الليل الطاغى العاتى يا من ألفتم نعومة الحياة وطراوة العيش ... فوقك السماء لا تراها ، ولكن تحس أنها دنت منك وأسفت إليك ، فلو رفعت يدك لدفعتها ، وتحتك الرمل تغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ، ويأبى أن يدعها لك ، كأنما شوَّقه طول الجدب إلى غرس ولو كان إنساناً ! ومن الريح فى أذنيك الرعد مرسلاً دافقاً – هل رأيت (الدوامة) فى الماء ؟ إليها تنحدر كل موجة وصوبها يجرى كل طاف ، فيها يغرق كل محمول على متن التيار – كذلك تكون أذناك للريح .. ففيهما ينصب صفيرها وإليهما يجرى مزمزمها ، إنما آضتا قطباً شمالياً يجذب الرياح من الجهات الأربع .. يا لفرحة الريح بطارق الصحراء ! » .

* * *

القصة فى أدبه

ولعل القصة أنسب أدوات الأدب لقراء العصر الحديث لما تهيئه لهم من فرصة الاستمتاع الأدبى السهل ولما تثيره فى نفس القارىء من رغبة فى القراءة ومتابعة أحداث القصة حتى نهايتها ، وللطريقة البسيطة التى تعرض بها مشكلات الحياة وآراء الكاتب ... لأن كاتب القصة لن يستطيع عرض رأيه أو عقيدته بطريقة مباشرة ، بل لا بد من إطار من الحوادث وسلسلة من العقد تنتهى إلى إبراز فكرته إبرازاً بسيطاً واضحاً ، وقد يكون غامضاً أو غير عميق ، ولذلك يميل السواد الأعظم إلى قراءة هذا النوع من الأدب .

ولعل هذا كله من الأسباب التى كانت تدعو المازنى إلى الاستخفاف بأدب القصة والإعراض عنه فى كثير من الأحيان مع أنه « لو عرف المازنى أن معدنه القصصى من أنفس المعادن لأفسح الطريق لملكته القاصة ولغدا فى ميدان القصة وهو قمة من [1] القمم » .

ومع هذا الاستخفاف والاستهانة بشأن القصة من جانب المازنى فإنه كان فى الطليعة من كتابنا القصصيين الذين تركوا تراثًا قصصيًّا خالداً .

غير أنى أستطيع القول مطمئنًا أن المازنى قد حاول أن يحاكى الكتاب الواقعيين فى قصصه ، فقدم لقراء العربية صوراً حية من واقع الحياة الشرقية تنبض بالروح وتفيض بالحيوية ؛ ولم يكن يعنى كثيراً بحبكة القصة وقواعدها الفنية قدر عنايته بأشخاص الرواية وتحليل نفسياتهم وعرض واقع حياتهم وطرق تفكيرهم .

وإنك لتجد من ذلك الكثير فى قصتيه الخالدتين (إبراهيم

---

(١) العدد ٨٤٢ من الرسالة .

(٢ - موكب الخالدين)

الكاتب) و (إبراهيم الثانى) وفى غيرهما من كتب المازنى ومقالاته التى كان يصوغها فى معظم الأحيان فى قالب قصة فكهة ساخرة .

فلسفة المازنى

(يزحف الليل فأبرز إلى الصحراء فيلفنى الظلام فى شملته وتلطمنى الريح وتدفعنى وترد من خطاى ، كأنما تريد لتصدنى عن هولها ، وأعود كبعض ذراتها لا تراها العين ولا يحسها ولا يحفل بها كون ، فليت من تخدعهم الحياة وتنسيهم ضآلة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء) .

هذا كلام جميل ورأى مصيب لشاعر مس قلبه اليأس فاحتقر الحياة ، وما كان هذا القول الذى صدر عن المازنى ليمثل رأيه الحق فى الحياة ولا نظرته الفعلية لها ، لأن المازنى كان حريصاً على الحياة حرص الشحيح على الدينار ، فهو يقول (نعم من الأكاذيب ومغالطة النفس أن يدعى أحد الزهد فى الحياة والشوق إلى الرحيل ، وأن يتظاهر بالارتياح إلى ذكره بعد ذهابه . حتى التيقن من خلود الذكر ليس فيه سلوان [1]) .

بل إن المازنى كان يرى أن الإنسان هو محور الحياة وأنه لاهم للإنسان فى الوجود إلا الإنسان ، وقد بلغ فى ذلك منتهى الأنانية ، إذ يقول (وإن الإنسان لا يزال يتلمس الإنسان ويحاول أن يجتليه فى كل شىء كأنما هو يستوحش الشىء إذا أحس أنه منه خلاء ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان الإنسان إنساناً ولا كان على الدنيا طلاوة ولا للحياة رونق وحلاوة . ولعمرى هل تروقنا الأرض إلا لأنها مسكننا ومثوانا ومراحنا ومغدانا ؟ وهل يملأ الروض عين من نظر إلا إذا أحس أن رياحينه تحييه وحمامه يغنيه ويلهيه وغصونه توسوس إليه وأنه متصل بحاضره وماضيه وبذكرياته وأمانيه ؟ ولعمرى كيف الحياة ؟ وماذا العيش إذا أنت حرمتنا هذا

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٨٧ .

الإحساس الحلو والأنانية اللذيذة وسلبتنا هذا الخلق الإنسانى والغريزة التاريخية ، وذلك أصل الدين وأصل الشعر وأصل العلم [١] ؟؟) .

وهكذا ينتهى المازنى إلى أن الأنانية هى أصل كل الفضائل الإنسانية ، وهو يعتذر على كل حال عن هذه الآراء بأن مقتضيات العيش وطبيعة الحياة تؤدى إلى ذلك ، ولا سبيل إلى الخروج على سنة الوجود ؛ ويضرب لنا مثلا من أنفسنا فيقول : (من الذى يحب الواجب لذاته ؟ أين هذا الفنان الذى يزاول (الواجب) ويتوخاه إرضاء لعاطفته الفنية ؟ لست أنا به على كل حال ، وما أظن بالقارىء إلا أنه مثلى ؛ وإذا كنا من الأوساط فسبيلنا أن يدفعنا الإحساس بالواجب إلى مباشرة أعمالنا والقيام بما هو مفروض علينا وإلى مجانبة المغريات التى نلاقيها فى طريقنا ومقاومة المفاتن ، ونحن إذ نفعل ذلك نعترف بالحاجة التى تحمل على النهوض بعبء الواجب ، وبالضرورة التى تحتم الإذعان لأمره ، ولكنا لا نحس (الحب) لهذا الواجب ، وإنما نحس ثقله من الفاتحة إلى الخاتمة . وقد لا نقاوم أو نناهض - بعنف - غير أنا على هذا نود لو أن الأمر لم يكن كذلك والحال لم تكن تقتضى ذلك » .

وهكذا يسخر المازنى من الفلسفة النظرية ، وينتهى إلى القول بأن الفلسفة والمثل العليا جميلة فى حد ذاتها لكن الواقع المادى أجمل منها فيحسن الاستسلام له وعدم التعب فى تقليب كتب الفلسفة . (ويقلب كتب الفلسفة الحديثة فإذا هى تعالج أن ترد إليه القدرة على الإيمان بالواجب وتقول له إن الواجب يمكن أن يحبه كل امرىء .. ولماذا ياترى ؟ قالوا لأنه مرتبط بالحياة العالية أو هما شىء واحد ، فأما من خبروا هذه الحياة العالية وعرفوها فيفضلونها لا محالة على الحياة الواطية ! نعم إن

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٣٠٧ .

(الواجب) يتصارع مع المتع واللذاذات التى هى أحط ، ولكن هذا الصراع يفتر فى النهاية ويتطابق الواجب والرغبة)[1] .

وقد تطابق الواجب والرغبة عند المازنى واستجاب للجماهير ونزل بكتابته إليهم لكن بعد أن ازداد سوء ظنه بالناس والحياة ، فتراه يتساءل بعد ذلك : « وما معنى (يوتوبيا) وأين هى ؟ فنقول معناها (لا وجود له) وكذلك الكمال فى الدنيا لا سبيل إليه .. » وهذا قول هين لين ، لكن المازنى عريق فى سوء ظنه بالناس بل هو ساخط ناقم عليهم وعلى الحياة أبداً ، فهو فى حرب معهم جميعاً كما يتخيل ، والدنيا فى رأيه بنيت على الظلم فليكن هو ظالماً أيضاً .. (لو كان فى هذه الدنيا موازين لا تغل شعيرة تزن أقدار الناس والأمم وتقسم الحقوق بالعدل والقسطاس لما عادت بنا حاجة إلى النصح بالمغامرة وإطراح الحياء والخجل ونفض غبار القناعة والخمول ، ولكن ما تستحقه رهن بتقديرك وحدك دون سواك ، فمن أفحش الحمق أن تدع أمرك موكولا إلى خصمك ، نقول خصمك لأن كل الناس وكل الأمم خصوم على الحقيقة – وما من أحد إلا وفوزك بشىء أو سبقك إليه ، يحرمه إياه ، فهو مضطر إلى مغالطتك فيه وصرفك عنه ومغالبتك بالقوة عليه إذا لم تجد معك[2] الحيلة) .

ويخيل إلى أن هذا التشاؤم وسوء الظن قد خالطا روح المازنى ومشاعره وأصبح اليأس من الحياة ومن الناس إحدى الطباع المتأصلة فى نفسه والعواطف المنبعثة عن وجدانه حتى إنه ترجم عن هذه العاطفة شعراً بلغ منتهى القوة مع ندرة الجيد من شعره فقال :

أكلما عشت يوماً أحسست أنـــى مته
وكلما شمت خلاً وجدت أنـــى فقدته
ثوب الحياة بغيض ياليتنـــى مـــا لبسته

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٥٥ .
(٢) حصاد الهشيم : ص ٢٧ .

إن هذه الأبيات البليغة التى تقطر أسى ومرارة تصور إلى أى حد أوغل المازنى فى التشاؤم ، وإنى لموقن أن المازنى فى رأيه هذا قد تأثر إلى حد كبير بأبى العلاء المعرى حتى حاكاه فى الكثير من أقواله ، فهو يقول : « الموت على الأقل راحة فليت الحادى يعجل بنا ؛ فقد سئمت الحياة ومللت النظر فى وجهها الملطخ وثوبها المرقع ، واشتقت إلى أن أرقد هنا ... » .

إن هذه الكلمات لتذكرنى ببيت أبى العلاء :

رقدة الموت ضجعة يستريح الـ

ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

لكن المازنى يرجع تشاؤمه إلى أنه « أشربت نفسه حكمة الكتاب المقدس التى تجنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما تتعلق به باطلًا وقبض ريح ،ويسخر من جهد حياته فيحسبه حصاد هشيم » .

أو لعل الأمر يرجع إلى كثرة ما فكر المازنى فى الحياة وقاسى من مرارتها ، ولقد مرت عليه هزات نفسية عنيفة .. هزات جرحت قلبه ، وأثارت مكامن الأسى فيه ، وصرفته إلى نوع من الكآبة المشوبة بالسخرية ، وراح وحده يحس الغصة فى حلقه والمرارة فى نفسه ... يقاسى ألمه النفسى ويعيش فى صراع عنيف مع آلامه ومع الحياة ومع أفكاره ، فأسلمه ذلك إلى التشاؤم الذى صاحبه ، والذى حاول كثيراً أن يفلت منه ويتنكب عنه ولكنه لم يستطع ... فخيالات الماضى دائمًا تلاحقه ، وذكريات الأيام دائمًا تنكأ جراح قلبه ، والحياة تسير به إلى الشاطىء الآخر لا تحفل بحزنه إذا حزن ولا بتشاؤمه حين يتشاءم ، ولا بما يصطرع فى نفسه من صنوف المشاعر وضروب الأحاسيس ... وعندما يدركه الفتور ويرجع إلى نفسه [1] ويرى تشاؤمه وحزنه يعلل

(١) من مقال غائب طعمة فرمان بالثقافة عدد ٥٥٧ .

نفسه ويقول : « ولكنك عبد الحياة .. عبدها الشاكى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار الطلقاء . وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك .. لا بأس ، أرسل صوتك ليؤدى الصدى مقطعاً .. نعم وغنّ وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، واحلم – على الرغم من الأرق والأسى – بالخلود ... لا بأس غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى [1] » .

وقد صاحب هذا التشاؤم عند المازنى أو كان من أسباب وجوده ، تلك النظرة المستخفة بما فى الحياة من حقائق كان يراها المازنى كالخيال لأن غايتها إلى أمل وذكرى وكلاهما خيال ..

بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، وأعتقد أن كل ما فى الوجود باطل سائر إلى فناء فقال : « ويثقل على نفسى خاطر واحد يكاد يصدنى عن المواظبة هو ما جدوى هذا كله ؟ ... ما آخر هذا العناء الذى أراه باطلاً ؟ .. آخر ذلك كله معروف وهل ثم من آخر سوى الفناء ؟ ولكنى أعود فأقول لنفسى بأن هذا الآخر لا آخر سواه ، سواء بذل المرء الجهد أم قعد عنه وضن به ، فلا فائدة من التقصير ولا ضير من السعى . والحياة أن تحيا لا أن تجمد وتركد وتأسن . أما الجدوى فلماذا أعذب نفسى بالسؤال عنها ، وما جدوى أى شىء فى الحياة ؟ .. إن كل ما أعرفه أنى موجود وأنى وهبت قدرة على الإحساس والتفكير .. فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل عملها ؟ .

« وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور به وأنا أعطل ما أعطيت ؟ .. ويعرف الجدوى من أعطانى ؛ فلندع له ذلك ، فهو أعرف به » [2] .

---

(١) إبراهيم الكاتب : ص ١٨٨ .

(٢) « من النافذة » : ص ٩٥ .

وهكذا ينتهى المازنى فى فلسفته إلى نوع من الاكتفاء الذاتى على نحو ما يغرد الطير ويرف الشجر وتفوح الثمار وتفيض الينابيع عن الأحجار غير محتاجة إلى وحى خارجى ، أو إلى عون تستمده من غيرها أو إلى أمل فى خلود بعد الممات وذكرى .. فاستمع إليه يقول : « ولكن ، لا تسمح لى أن أسألك : ما وحى الأزاهر الذى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى النبع فاضت به الأصلاد ؟ .. لا بأس غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى » .

السخرية فى أدبه

يجرنا الحديث عن فلسفة المازنى إلى بحث علاقة هذه الفلسفة بما شاع فى كتاباته من سخرية ، وقد رأينا المازنى برغم تشاؤمه حريصاً على الحياة ، وكان يود لو استطاع السيطرة على الحياة بطريقة الاكتفاء الذاتى التى انتهى إليها بفلسفته « ولكم كانت تحلو الحياة عندئذ لرجل كالمازنى الذى ضاق ذرعاً بالحياة والأحياء حتى أصابه منهم اليأس وتفجر هذا اليأس سخرية وتنكراً للحياة ومن فى الحياة وما فى الحياة [1] » .

« وعلى الرغم من هذا التعلق بالحياة والنزوع إلى الاكتفاء بالذات لم يفلت المازنى من أن يحس بهبوط هذه الحياة هبوطاً ذاتياً أيضاً عندما تتقدم بنا السنون وتجفف من عصير قلوبنا فقال : (متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وأن ما تبقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجوداً منه بأن يكون حياة – استمرار ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه – عرف المرء أن أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح يخفق بلا

---

(١) من بحث الدكتور محمد مندور فى بلاغ ١٩ / ٨ / ١٩٤٩ .

احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها .. وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وها هنا) » .

فى هذه الفقرات يبلغ المازنى من التشاؤم حدًّا لا يمكن تجاوزه ، وذلك لأنه تشاؤم من صميم الحياة ذاتها ، فلم تمله ظروف خارجية ولا أوضاع اجتماعية ولا دخل للغير فيه ، وإنما هى الحياة ذاتها تخبو بين أيدينا ونحن عاجزون عن أن نعود فنشعل ثقابها .. أو هى الحياة يرى المازنى أنها صائرة إلى عدم بعد أن طوحت بآماله وملأت عمره آلامًا وأحزانًا ، فمن عسر فى المبدأ إلى حب خائب منى به إلى فواجع متوالية أبرزها موت زوجه .

كل هذه العناصر تجتمع فتكون فلسفة المازنى التى اتخذ السخرية سبيلاً للتعبير عنها ، وهى كما ترى عناصر بعضها مستمد من بيئة المازنى وهى بيئة مصرية ، وبعضها مستمد من طبيعة الحياة فى ذاتها ، وبعضها مما تأثر به فى مطالعاته .

لقد انتهى المازنى إلى السخرية من الحياة ومن فى الحياة وما فى الحياة [1] ولم يعد يؤمن بشىء فيها ، وامتدت تلك السخرية حتى شملت عصارة نفسه وجهد حياته ، فلم ير فيما يكتب غير حصاد هشيم وقبض ريح وملهاة أطفال .

لقد كان المازنى يبدو متواضعًا فى حياته ، لكنه فى الواقع كان يلبس ثوبًا مهلهلاً من التواضع يحاول أن يخفى وراءه كبرياءه وترفعه على الناس أو احتقاره الشامل للحياة وما فيها ومن فيها .

---

(١) من بحث للدكتور محمد مندور فى بلاغ ١٩ / ٨ / ١٩٤٩ .

كان تواضعاً ينطق بإيمان صاحبه بنفسه وبسموه على معدن الأحياء حوله حتى ليقول : « إن اللآلىء لا تذوب فى الأوحال » وليس بعد هذا كبرياء بل قوة وشراسة .

ولذا كانت سخرية المازنى تعبر عن ألم دفين وتنفس عن مرارة مكبوتة فى نفسه ... إن هذا الذى يقول لقارئه : « أقسم إنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجًّا ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة بأبخس الأثمان ... الخ ، واعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه - الكتاب -ولا يسوءنى أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقنى بأن أضحك من العائبين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كان تحت أنوفهم ... إنى مستغن عن رضى النقاد والمتحذلقين عن كتابى هذا ، وقانع باستحسان أمثالى من الأوساط المتواضعين ، وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأمى ، بل أكثر مما يلزم لى » ... إن هذا الشخص الذى يقول هذا القول إنما يفصح عما يعتمل فى نفسه من ثورة ومن آلام معركته اليائسة مع الحياة والأحياء ، ولذلك هو يسعى إلى الانتقام منهم بهذه السخرية اللاذعة المريرة .

إن السخرية - وقد كان المازنى بارعاً فى استخدام سلاحها - وهو سلاح أمضى [1] فى يد الكاتب من كل الصرخات العاطفية ، لأن البكاء والولولة والنحيب أسلحة مثلومة إلى جوارها تنفر القارىء بما تعرض من ضعف وبما تقحمه من مشاعر خاصة شخصية على مشاعر الناس .

بينما السخرية - وهى قلب للأوضاع وتحايل على المشاعر وتعبير بالإيحاء - تخفف من ثقل العاطفة الشخصية ، ويستطيع الكاتب بفضلها أن يلج رحاب النفس ، ويبلغ مأربه من قلب القارىء فى غير عناء ...

---

(١) بحث الدكتور محمد مندور فى البلاغ .

وهى بذلك تفضل الأسلوب التقريرى العقلى أيضاً لانتفاء دعوى القدرة والسيطرة على عالم الفكر منها .

لكن المازنى فى أيامه الأخيرة نحا نحواً جديداً من السخرية لا يغاير ما اعتدناه من سخريته كل المغايرة ، إنما يختلف عنه فى ناحية واحدة أو فى عاطفة جديدة لم تكن منعدمة فى كتاباته السابقة ، إنما كانت فى كتاباته الأخيرة أميل إلى الظهور وأوضح للقارىء ... تلك العاطفة هى عاطفة الرثاء للناس والإشفاق عليهم والحدب على آلامهم ؛ وراح لذلك يثبت للناس آراء جديدة فى السخرية الأدبية بناها على أساس هذه العاطفة الغلابة « وأنا فى العادة أوثر الاحتشام أمام الناس ، ولكنى حين أكون بين إخوانى وخلصائى أطلق لنفسى العنان ولا أبالى ما أقول أو أفعل ما دمت أريد أن أقوله أو أفعله ، ولو وسعنى أن أملأ الدنيا سروراً واغتباطاً لفعلت فإنى عظيم الرثاء للخلق ، وأحسب أن هذا تعليل ميلى للفكاهة ، فإنى أتسلى بها وأنشد أن أدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقادى أن عند كلاً منهم ما يكفيه من دواعى الأسى ، وما دام فى الوسع أن نعرض عليهم الناحية المشرقة الضاحكة فلماذا نغمهم ونحزنهم ... ثم إن للفكاهة مزية أخرى هى أنها من أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها والنهوض بأعبائها الثقال ؛ فهى ليست هزلاً ولا تسلية فارغة ، وإنما هى تربية للنفس . والرجل الذى يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم – لا الأبله الغافل – خير وأصلح ألف مرة من الذى لا يزال يدير عينيه فى جوانبها الحالكة ويندب ويبكى ويعول ، ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا حسن ؛ فلماذا لا ننظر إلى الجانب الوضاء .. أو لماذا نعمى عنه وهو موجود ، أى لماذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان أو صحة الوزن [1] للأمور ؟ » .

---

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ١٩٤٩ .

وفى حديث آخر للمازنى قبل وفاته بأيام قلائل ، وقد رفض رئيس تحرير المجلة أن يقبل منه رثاء للمازنى بقلم المازنى يقول له : « كنت أريد أن أضع مثالاً جديداً فى الرثاء ؛ فإن مديح الموتى أصبح عادة مملة ، والبكاء على الأموات فى الصحف يذكرنى بما يقوله الندَّابات فى المآتم .. أريد أن نتعود تسجيل أخطاء الموتى ونوادرهم .. أريد أن يبتسم الناس عندما يسمعون نبأ موتى .. إن حياتى كانت سلسلة من المآسى ، لكنى يوم أموت أريد أن أسجل ابتسامة على شفاه قرائى .. إن الدموع تجف سريعاً ! ولكن الضحكة تعيش طويلاً » ! .

هذه سخرية المازنى ، وهى سخرية ترفعه إلى مصاف كبار الكتاب العالميين ، لأنها صادرة عن فلسفة فيلسوف بصير بحقائق الحياة قدير لى بلوغ أهدافه من نفوس قارئيه .

ولا يسعنى أن أختم هذا البحث قبل أن أشير إلى ميزة أخرى من ميزات المازنى ، وهى ولعه فى حياته الخاصة « بالمعاكسة البريئة » والدعابة اللطيفة ؛ ويروى لنا صديقه الأستاذ عباس العقاد هذه القصة عن الفقيد :

كنا نقضى السهرة ذات ليلة فى ناد كبير من أندية الموسيقى والغناء وطالت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، وكان رحمه الله يبيت يومئذ بمنزل على مقربة من الإمام الليث ، ولم يكن خط الترام قد وصل إلى الإمام ، وقد كان الترام الذى يذهب إلى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال .. وودعته وهو يتفق مع حوذى ليوصله فى مركبته – مركبة خيل – لأن السيارة لم تكن شائعة فى تلك الأيام .

وكان الجو ليلتها رائقًا والقمراء فى أوانها وسكون الهزيع الثانى من الليل يغرى بالغناء ، ويظهر أن الحوذى حين رآنا نخرج من النادى الغنائى – قد بدا له أننا من هواة السمع فلا حرج عليه إذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من الطقاطيق التى يهواها ، ولم ينس أن يعتذر إلى

(زبونه) بعد أن رفع عقيرته بالغناء – (لا مؤاخذة يا سيدنا البيه .. إن محسوبك من هواة السمع وإنه ..) .

وقبل أن يمعن فى الاعتذار بادره (الزبون) قائلا : – خذ راحتك .. « أنا والله أحب أسايرك » .

فلم يملك الحوذى نفسه من الطرب والارتياح لأن الجواب الذى سمعه جزء من « الطقطوقة » التى كان يغنيها ، وراح يغنى تارة ويردد قصته التى بدأ فيها تارة أخرى ، وخلاصتها أنه كان – لهوايته السماع – يختار موقفه إلى جانب « تخوت الآلاتية » ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الإفلات من رقابة البوليس .

وانجلى الحوذى وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ونسى البوليس والزبون ومضى كأنه فى ليلته يود أن لا تنقضى به الطريق .

وتدرك أخانا رحمه الله تلك الشنشنة التى لا تفارقه ، ويوحى إليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائى » الذى أقحمه الحوذى عليه فأفسد عليه فى آخر الليل ما سمعه فى أوله .. إن المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول فى الطقطوقة التى يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك .. » فماذا لو كانت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون .

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ وخلت المركبة ،والمطرب المشغول بغنائه لا يدرى ، لأن خلو المركبة وامتلاءها بذلك الحمل الذى كان فيها يستويان (١) .

وانسف الحوذى بعد أن طالت الرحلة ، ولم يستمع من الزبون صوتًا ولا أمرًا بالوقوف .. فطار ما فى دماغه من الغناء وامتلأ بكل ما وعاه فى حياته من البذاء ... ولا حاجة بالقارىء إلى ترديد ما ألقاه من لسانه فى

---

(١) كان المازنى قصير القامة ناحل الجسم .

ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه أو يستدل به ، وغريمه الباحث عنه كان دليله الوحيد .

ويزورنى الصديق فى اليوم التالى فيسألنى : « أتذكر شكل الحوذى الذى كنت معه بالأمس ؟؟ قلت : لا أظن أننى أحقق شبهه ، فلماذا تسأل عنه ! هل فقدت شيئًا عنده ؟

قال ضاحكا : كلا ، ولكنه هو الذى فقد ؟

فلم أفهم شيئًا وسألته : وماذا فقد ؟ قال : فقدنى أنا .. وقص علىَّ تفصيل تلك القصة التى أجملتها هنا بعض الإجمال .

انقضى إربه من المعاكسة وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فإذا هو مهموم بالبحث عنه لإعطائه أجره الذى خيل إليه أنه ضاع بغير أمل ، فقلت له إن حوذيًّا بهذه الصفة لابد أن يكون معروفًا بين زملائه فى موقفه وغير موقفه ، فهلم إلى الموقف نبحث عنه هناك .

ولم يخطىء ظننا فى جدوى البحث هناك ، لأن القصة كانت حديث زملائه وإن لم يكن هو بالموقف تلك اللحظة ، فأخبرناهم أين يجدنا إذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل يهرول وهو لا يصدق أن زملاءه قد صدقوه الخبر ، فلما رأى صاحبه بالأمس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف الأجر الذى كان يطمع فيه وانصرف وهو يدعو له ويقسم « لا عدت إلى الغناء أبدًا وأنا مركب » وإلا « فعلى روحى أنا الجانى » فقال له الصديق العزيز« بل تغنى ما شئت ولكن تعطى وجهك للسمِّيع » .

وكان المازنى رحمه الله ينقل الكثير إلى قرائه من هذه الدعابات البريئة والنوادر المستملحة فى أسلوبه الساخر الذى يكشف عما يكمن وراءها من معان إنسانية .

مقارنة

لا يمكننا التحدث عن المازنى دون أن نقيم هذه المقارنة بين المازنى

والمازنى أو بين المازنى ونفسه ... المازني فى العشرة الثانية والثالثة وبعض الرابعة من القرن الحالى ، والمازنى فيما بعد حتى عام ١٩٤٩ .

لقد كان المازنى فى أول عهده بالأدب والصحافة أديبًا يعنى بمشكلات الحياة ويتعمق فى نظرته إليها ولا يكتفى بالقشور من الأمور ولا بالنظرة السطحية ، بل يحقق ويدقق ويتفلسف فيما يكتب ، وكان كما أسلفنا أستاذًا يعلم جيلا ويتزعم مدرسة من الأدباء والقراء ممن يتذوقون الأدب الحق ، وكان يوجه النشء الوجهة الصحيحة فى الحياة .

فهو فى كتاباته يعالج التراجم ويفرد كتابًا لابن الرومى وينصب نفسه للدفاع عنه وعن مذهبه فى الشعر ، وتراه فى حصاد الهشيم يحدثك عن المتنبى وعمر الخيام وماكس نورداو وشكسبير ، ومقاييس الفن والجمال والتصوف فى الأدب والشعر الوصفى والتصوير والطبيعة والخلود ، وكل وعر شائك من الموضوعات ، غير هياب ولا وجل ، ويبدى رأيه فى جرأة وصراحة ، ويتقبل نتائج كتاباته فى اطمئنان الواثق بنفسه المعتد برأيه .

لكنه فى الأعوام الأخيرة من حياته ترخص فى كتاباته ومال إلى إرضاء الجماهير ، فطرق المواضيع السهلة وكتب فى التافه من الأمور وكتب كثيرًا وأجاد قليلا حتى قال مخاطبًا صديقًا له من النقاد : « ستقول إن المازنى كان بالأمس خيرًا منه اليوم وإنه ترك زمرة الأدباء وانضم إلى زمرة الصحفيين ، وإنه يكتب فى كل مكان ويكتب فى كل شىء حتى أصبح تاجر مقالات تهمه ملاحقة السوق أكثر مما تهمه جودة البضاعة ، أليس كذلك ؟ ... ولكن لا تنس أن الأديب فى بلدكم مجبر على أن يسلك هذا السبيل ليكسب عيشه وعيش أولاده وليستطيع أن يحيا حياة كريمة تشعره بأنه إنسان [١] .. » .

وحقًّا كان المازنى صاحب عيال ورب أسرة ، عليه أن يدبر أمرها

---

(١) العدد ٨٤٢ من الرسالة .

ويحفظ لها عيشًا كريمًا . وقد أيده الدكتور أحمد بك أمين فيما ذهب إليه فقال : « لذلك كان المازنى مضطرًا دائمًا أن يكتب ليعيش وتعيش أسرته .. يعانى المرض ويعانى الألم ويحس الحاجة القصوى إلى الراحة ، ولكن أنى [1] له الراحة والعيشة لا ترحم والحكومة لا ترحم والأغنياء لا يرحمون ؛ وتتدفق الأموال على الراقصة الخليعة والمغنى المهرج ويعيش الأديب عيشة سوداء كحبر قلمه ومن مجرى ضيق كشق قلمه » .

وهكذا كان المازنى مضطرًا لأن يستجيب لرغبات الجماهير ويترك فنه الأصيل إلى ميدان آخر ...

أو هكذا تعود بنا هذه المقارنة إلى علة العلل الكامنة وراء فلسفة المازنى الساخرة وتشاؤمه المرير .. ألا وهى الصراع العنيف الدائم ، والمعركة التى استمرت العمر كله بينه وبين الحياة ، حتى إنه اضطر ذات يوم إلى بيع مكتبته ليدفع عن نفسه الحاجة ، ومكتبة الأديب لو تعلمون أعز ما عنده فى الوجود .

أعماله

إنه أمر مؤسف حقًّا ، ألا تهيَّأ الأسباب لأديب فذ كالمازنى حتى يتفرغ لأداء رسالته بدلًا من استغلال مواهبه فى هذا العمل الصحفى العاجل الفانى الذى يستجيب لوحى الساعة وضرورات المناسبة .

ولو تيسرت موارد العيش للمازنى واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذى يريده لأمتع الناس بالعجب العجاب فى هذا الباب ، ولظفر العالم العربى بثروة المازنى كلها ، وما أنفسها وأجلها ! .

ومما كتب المازنى : إبراهيم الكاتب ، إبراهيم الثانى ، قبض الريح ، الديوان ، رحلة الحجاز ، صندوق الدنيا ، فى الطريق ، خيوط العنكبوت ،

---

(١) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

بشار بن برد ، ع الماشى ، مختارات من القصص الانجليزى ، عود على بدء ، السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، أقاصيص ، ثلاثة رجال وامرأة ، من النافذة .

وغير ذلك كثير . فما أحرانا بعد أن أضعنا من هذا الكنز ما ضيعنا – وهو بيننا – أن نتعلم كيف نصون ما أبقاه لنا ، وأن نجمع ما لم يطبع من كتابات المازنى ، وأن ننشره ضنًّا به على الضياع وحرصًا على تراث من آدابنا العربية من الفناء .

* * *

obeikandl.com

الخليـــل

رب القريض وســـــيد القلم وفيت قسطك للعلى فنم [1]

هذا الشاعر الذى ملك زمام الشعر وناصية اللغة وقاد ثورة فى عالم الشعر ، كان من أكبر الناس قلباً وأنبلهم نفساً وأكرمهم شمائل ، وكانت حياته دعوة للسلم متصلة ونداء للمحبة والإخاء بين الناس ، وأنشودة عذبة من أناشيد الحب لبنى الإنسان ، وليس هذا بمستنكر ممن نشأ نشأة الخليل .

فلقد ولد خليل مطران فى مدينة بعلبك بلبنان عام ١٨٧١ م ، على أرجح الأقوال ، من أسرة عريقة ، وتلقى علومه فى المدرسة البطريركية ببيروت وعن العلامة إبراهيم اليازجى حجة اللغة والأدب فى عصره ، وقد قضى فى لبنان صدر شبابه ، ثم هجره إلى باريس حيث نهل من منابع الآداب الغربية وعلومها ما ظهرت آثاره فى أشعاره وكتاباته .

وفى باريس اشترك فى بعض الحركات الوطنية التى رمت إلى تحرير الوطن العربى ، ثم عاد إلى مصر التى اتخذها موطناً له .

وفى مصر ساهم فى تحرير الأهرام واللواء والمؤيد ، وظهر نبوغه فى تحرير المجلة المصرية والجوائب ، وقد عين مراسلاً للأهرام فى القاهرة عندما كانت تصدر فى الاسكندرية ؛ وبعد انتقالها إلى القاهرة طلب منه أن يتولى رياسة تحريرها فاعتذر عن قبـول هذا المنصب وتحول إلى الحياة العاملة ، وكانت له أوجه نشاط فى ميادين الاقتصاد فربح كثيراً وخسر كثيراً ، إلى أن انتهى به المطاف إلى العمل سكرتيراً للجمعية الزراعية ، وقد ظل يقوم بأعباء هذا المنصب إلى أواخر أيامه .

---

(١) من رثاء الخليل لليازجى .

وفى عام ١٩٣٥ تولى إدارة الفرقة القومية المصرية للتمثيل العربى ، وبقى فى إدارتها سبعة أعوام تقريباً .

وقد ألحت عليه العلة فى أيامه الأخيرة حتى عاقته عن النهوض بأى عمل ، وحتى رغبت إليه الموت فقال مخاطباً تمثالاً له :

مـــثالى إننـــى أرنو إليـــك وإن بـــى رفقًا
دنا أجـــلى فيا جذلى ولكـــن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى ؟

وقد ودع الخليل شقاء الدنيا هذا فى مساء الخميس ثلاثين من يونيه عام ١٩٤٩ .

العوامل المؤثرة فى شعره

لقد أطال الله فى عمر الخليل سبعًا وسبعين عامًا استطاع أن يشهد خلالها أحداثًا جساماً فى الشرق العربى ، وأن يتأثر ويؤثر فيما طرأ على الآداب العربية من تطورات بعيدة المدى عميقة الأثر .

وتعاقبت على هذا الشرق فى حياته ثورات سياسية وحروب مختلفة .

فمن الثورة العرابية فى مصر ، إلى حرب البوير ، وحرب الجبل الأسود إلى الحرب العظمى الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية .

وكنا دائماً نشهد انعكاس آثار هذه الأحداث فى شعره ونفسه ... نفسه الأبية التى تبغض الظلم والظالمين وتكره البغى والباغين ؛ فاستمعوا إلى هذه الصرخة المدوية يرسلها عند شبوب حرب البوير :

ولنبـك من ماتوا وما منهم جبـــان منهزم
ولنرث للضعفاء يفـ ـــنيهم قوى مغتشم
خطب رآه المنصـــفو ن كأن أحياهم صنم

رأوا الذئاب فحاولوا أن يدرأوها بالحكم
أين القضاء إليه أر باب الممالك تختصم ؟
أين الحقيقة أين إنـ ـصاف البرىء إذا ظلم ؟
من للضعيف إذا شكا وعلى القوى إذا أثم

وفى قصيدة أخرى يقول وقد هاله ما لحق القوم من أذى وظلم مبين ، وهم عزل إلا من أسلحة بدائية قديمة يحاربون بها قوماً مدججين بالمدافع والأسلحة الحديثة :

شيدوا تاريخكم من نقض ما شاده فى أزل الدهر الطغاة
ثابروا فى وثبكم ولتهننا فى تلاشينا الهنات الهينات
تابعوا النصر بنصر ولتكن خجلة الأنذال هذى النصرات
يصفع الجبار من تعدمه منكم للضرب والطعن أداة

ويصحب هذا الاضطراب فى الأوضاع السياسية وانتشار الظلم والعدوان ضعف فى الأخلاق وإسفاف بين الناس يصوره لنا مطران فى هذه الأبيات البليغة :

رأيت حروبا أوقد الظلم نارها فمادت لها الآفاق واهتزت الربى
جرت مهج الأبطال فيها زكية كأن الثرى بالأرجوان تجلببا
إذا الشمس جرّت فوقه ثوب نورها طوته وراح الثوب بالدم مشربا
رأيت أساطين السياسة حلقوا فخلت لهم عند المجرة مطلبا
ولكن أسفّوا بعد حين كأنهم نسور هوت تبغى من الدم مشربا

ولا شك فى أنه كان لظروف المجتمع التى أحاطت بمطران أثر بالغ فى شعره ، بل لقد أفسد هذا المجتمع بعض شعره ...

لقد كان مطران أبى النفس حر الطباع نزاعا إلى التحرر من القيود لا

سيما قيود الظلم ؛ ولذا نراه يدافع عن حرية الرأى ويحمل على قانون المطبوعات فى مصر ؛ وكان من أثر هذا الدفاع أن هدده رئيس وزارة ذلك الزمان بالنفى ، فأجابه بقصيدة عنوانها « تهديد بالنفى » :

أنا لا أخاف ولا أرجى فرسى مؤهبة وسرجى
فإذا نبا بى متن برّ فالمطية بطن لجّ
لا قول غير الحق لى قولٌ وهذا النهج نهجى
الوعد والإيعاد ما كانا لدى طريق فلج

ومن دلائل روحه الجريئة المقدام شغفه فى صباه بركوب الخيل والسبق على متونها حتى وقع من فوق أحد الجياد ذات مرة فتكسرت أضلاعه وتهشمت أرنبة أنفه .

وهذه الجرأة نلمحها فى تركه الصحافة إلى الزراعة والتجارة والمضاربات وعدم استقراره على حال واحدة فى حياته . لكن ظروف البيئة المحيطة كانت تكبح هذه الجرأة . . لقد رأى الأحرار تنقل أشلاؤهم بالحديد وتطرح فى أعماق البسفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف فتقفر حقولها وتغل أعناقها ، فنرى الخليل بعد ذلك يؤثر التلميح فى قصائده الوطنية كقصيدة (شيخ أثينه) وهى دعوة حارة لمقاومة الاستعمار الغاشم ، وفى قصيدة (مقتل بزر جمهر) يرمى إلى تصوير ظلم السلطان عبد الحميد الذى كان يسوق أحرار العرب إلى القتل ، غير مراع فيهم إلاً ولا ذمة ، وهو يستحث القوم ليثوروا على الظلم بالموجع من القول مستترا وراء بزرجمهر :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه كان الحرام وما تحل حلالاً
ولِيذكرنَّ الدهر عدلك باهراً ولتحمدنّ خلائقًا وفعالاً
لو كان فى تلك النعاج مقاوم لك لم تجىء ماجئته استفحالا

وهل كان يعقل أن يعيش المرء جواباً فى الآفاق كلما نبا به بر طوى خيمته وارتحل ؟ ولو قدر الرجل فى شبابه على الهجرة والترحال فهل تستطيع الشيخوخة أن تعينه على مجاراة عواطفه ؟ .

وإذا كان هذا من غير المعقول فكان إذاً على مطران أن يكبح جماح عواطفه وأن يكبت ثورته أو يخفف من غلوائها ، وأن يكيف نفسه وفق ظروف الجماعة التى يعيش فيها والتى شاع فيها الضعف والاستسلام ؛ ولذا نرى التعقل يسود حياته بعد ذلك ويلون الكثير من شعره ، فيزخر هذا الشعر بألوان من المديح والرثاء والتهانى فى حفلات الزفاف مجاملة للناس فى أفراحهم وأتراحهم حتى آخر أيام حياته ، وفى وقت اشتداد العلة عليه كان يلح فى طلب الصحف ليطالع الوفيات وأخبار المجتمع لمجاملة الناس .

وأعتقد أن أثر البيئة لم يقف عند هذا الحد ، بل دفع بمطران إلى التماس العزلة والابتعاد عن الناس ، حتى يأمن أذاهم بعد أن خالط نفسه شعور باليأس من صلاحهم أو صلاح دنياهم :

وكم فى فؤادى من جراح ثخينةٍ ... يحجّبها بردای عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأت وحاجتى ... طلاقة جو لم يدنس بأرجاس
أسرّى همومى بانفرادى آمناً ... مكايد واش أو نمائم دساس
يخالون أنى فى متاع حيالها ... وأى متاع فى جوار لديماس (١)

وهو شعور يردده فى شعره كثيراً ، فنراه فى قصيدة أخرى يقول :

متفرد بصبابتى متفردٌ ... بكآبتى متفرد بعنائى
شاك إلى البحر اضطراب خواطرى ... فيجيبنى برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لى ... قلباً كهذى الصخرة الصماء

(١) الحمير من الأرض .

وكان خليل مطران رقيق الشعور رقة مفرطة حساساً إلى درجة بالغة ، ملىء قلبه حبًّا للناس والكون المحيط به ؛ وقد انعكست هذه الرقة فى شعره حتى ليخيل إلىَّ عند ما أقرأ بعض أشعاره أن كاتبها روح صافية خالصة .

تأمله معى يخاطب عصفورة رآها فى چنيف قرب تمثال چان چاك روسو :

سيرى وولى صدرك الـ ـمشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته وشرعت أعذب مشرع
عوجى ببستان هنا لك فى العراء مضيّع
لى فى ثراه دفينة كالكنز فى المستودع
تخفى الأزاهر قبرها عن أعين المستطلع
قولى له إن جئته يا أنس هذا البلقع
أتحس فى هذا الثرى نبضات قلب موجع
هذا حنين من فؤا د محبك المتفجع

وهو إلى جانب رقة الشعور يتحلى بتواضع جميل تنم عنه أشعاره الكثيرة كقوله :

كان فى الشعر لى مرام خطيرٌ فعدا طوقى المرام الخطير
هائم فى الوجود أسأله الوحـ ـى كما يسأل الغنىَّ الفقير
أكبرونى ولست أكبر نفسى أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يضق صدر شاعر بأخيه يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها ليس تحصى شموسها والبدور

كل جرم يعلو ويصبح نجماً فله حـــــــيز وفيه يدور

والنجوم التى تلوح وتخفى ربوات وما يضـــــيق الأثير

وهناك خاصة أخرى من خصائص مطران العظيم تدل على عمق شعوره بعظمته وسمو تفكيره وترفعه عن الحقد والحسد الذى يحسه أبناء الفن الواحد بعضهم لبعض .

إنه يحب كل شاعر ، ويأخذ بناصية كل أديب ناشىء يلجأ إليه ، ويعتقد أن هذا الأديب سيكون نجماً له حيز فى فلك الفن الذى يغص بالنجوم والشموس ، وكل فنان له طابعه الخاص ومجاله الذى يبرز فيه ، ولذلك تراه لا يتأخر عن الاعتراف بالفضل لشوقى وتقريظ ديوانه تقريظاً شف عن نفس بلغت منتهى السمو الخلقى ... نفس فرحت فرحة قلبية خالصة بعمل شوقى :

ضمنت لهذا العهد ذكراً مخـلداً وجددت للإســـــلام معجز أحمدا

وبتّ لمصر بالمفاخر محـــــــتداً ومن قبلُ كانت للمـــــفاخر محتدا

لك الله من شاك عن الناس دهرهم على حين لم يشكوا وقد جار واعتدى

ومن ساهر يفنى منار حيـــــاته ضياءً ليهـــــــــدى غافلين ورقّدا

ومن ناظم للمـــــلك تاج فرائد من المدح تيجـــــان الملوك له فدى

ومن منشد يحيى فخـــار جدوده فيكســـــــبهم مجداً بذاك مجددا

قواف يزين الشعر حســـن نظامها كما ازدان كأس بالحـــــباب منضدا

وسبكٌ يعيد اللفظ لحنا موقـــعا ويبدى لنا المعـــــنى الخفى مجسداً

أسحرا ترينا أم صحـــائف كلما نقلبها وجـــــــها نرى عجباً بدا

بيانك سيف الحق فى مصر قاطعًا ذليلاً به البـــاغى قتـــيلا به الردى

وذو العلم فليختر كتابك مؤنسـا كريمًا وأســـــتاذًا حكيمًا ومرشداً

بقى هناك عامل آخر – مرجعه البيئة أيضاً – من العوامل التى أثرت فى شعر مطران وحياته ؛ هذا العامل الخطير هو قلة احتفال الناس فى عصره بالأدب والأدباء وندرة القراء فى العربية ، وهو عامل ما زال يشكو منه الأدب العربى ، وأعنى بالأدب : الأدب الخالص والإنتاج الفنى الصحيح لا الصحافة الرخيصة .

وقد اضطر مطران عندما ضاقت به سبل العيش عام ١٩١٤ ولم يسعفه أدبه بما يسد الرمق إلى افتتاح حانوت صغير لبيع الفحم حتى يدرأ عن نفسه غائلة الجوع .

ولا شك فى أن هذه حال لا تشجع الأديب على الإنتاج بل الأرجح أن تدفع به إلى اليأس دفعاً ، وقد عبر مطران عن شعوره فى إحدى مراثيه قائلا :

إربأ بنفسك أن تـــكون نجيبًا ... وازجر خليلك أن يكون أديبًا
فلقد أرى موت الأديب حياته ... والعيش موتًا يلتـــقيه ضروبًا
وأرى جوائز فضـــله وعلومه ... إعســـــاره والداء والتعذيبا
يا للذكاء ينيرنا بضـــــيائه ... ويكون للجسم المضىء مذيبا
يا للعلوم نظنها نعمـــــا لنا ... فنصيبها نقمًا لنا وخـــطوبا

* * *